إشكالية التعريب بالمغرب

جليلة مراوحي

مقدمة

لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفال التفوق الثقافي الذي أحرزته اللغة العربية في الماضي. فقد كانت لغة ذات تاريخ وأدب وثقافة من قبل مجيء الإسلام، وازداد غناها بتلاقحها مع ثقافات أخرى في مرحلة الفتح الإسلامي. في المغرب، بقيت العربية الفصحى، اللغة التي وحدت النخبة المغربية. فجعلتها لغة التدين والسياسة والثقافة المكتوبة. بينما استعملت الأمازيغية وباقي الدوارج لسد حاجة الناس للتواصل اليومي. في سعيه لإثبات الذات أمام سطوة المستَعمِر، تبنى المغرب سياسة التعريب الشامل لمختلف مناحي الحياة، من تعليم وإدارة وكذلك الفضاء العمومي.

في ما يلي، سنقف عند تجربة التعريب التي خاضها المغرب بعد الاستقلال، متفحصين المرجعية الفكرية التي أطرتها. في مستوى ثان، سننتقل إلى رصد التطبيق الفعلي لمبدأ التعريب الذي شكل أحد الثوابت الأربعة التي قامت عليها دولة ما بعد الاستقلال، إلى جانب مبادئ التوحيد والتعميم ومغربة الأطر. سينحصر اهتمامنا في هذا الجانب على تجربة تعريب التعليم، باعتباره القطاع الحيوي المعول عليه في إنتاج أطر معربة كفيلة بتعريب باقي القطاعات. سنقدم في الجزء الأخير تقييما لما تم انجازه، كمكتسبات، والوقوف عند النواقص والمعيقات التي تعترض إنجاح هذا الورش.

1. في محاولة لتحديد المفهوم

1.1 -التعريب عند اللغويين العرب القدماء

لا يمكن الحديث عن طريقة موحدة في التعريب عند القدماء، فمنهم من عمل على دمج اللفظ الأجنبي دمجا تاما في اللغة العربية يستعصي معه تمييزه عن الكلمات العربية كما كان

على عهد الاحتجاج. حيث دُمجت كلمة (درهم) مثلا دمجا كاملا في اللسان العربي. أما التعريب في العصريين العباسي والمملوكي، فاتخذ شكل إدخال اللفظ الأعجمي كما ورد في لغته الأصلية مثل (بخت) بمعنى حظ، لذلك بقي غريبا عن ما تداولته العرب. غير أن التعريب دون تغيير بقي أسلوبا قليل الاستعمال.1

في معرض حديثه عن التعريب بالتغيير، يحصر سيبويه أربعة أنواع: ففي النوع الأول يتم إبدال حرف صامت بآخر مثله. فنقول لجام بدل لكام الفارسية الأصل. وفي النوع الثاني تبدل حركة صائت بحركة صائت، وعليه ننطق (دُستور) بالضم بدل دَستور بالفتح. يقع التغيير أيضا بالزيادة؛ فنقول في كلمة (رندة) التي تطلق على الجلد الأسود (أرندج) بزيادة الهمزة في الأول وإبدال الهاء جيما. وأخيرا تلجأ العرب إلى التعريب بحذف حرف أو أكثر كما وقع مع كلمة بريد معرب (بُريدة دُم).2 هناك من الكلمات المعربة ما يتم إبداله وإلحاقه بأبنية اللغة العربية (دينار أُلحق بديماس) وهو ما يسمى بالإلحاق. ومنها أيضا ما يُبدّل ولا يلحق بأبنيتها مثل (فِرنْد).3وعموما يبقى الغرض من الإبدال في التعريب هو الحفاظ أساسا على أصالة اللغة، بتجنب إدخال الحروف الأجنبية عنها مع تيسير النطق وتحقيق التناغم في الأصوات.

1.2.التعريب عند المحدثين

إن التعريب عند المحدثين ينقسم في تعريفه إلى قسمين رئيسيين موزعين بين الاستعمالين المشرقي والمغربي للمفهوم. فالتعريب عند المشارقة يكون باشتقاق الترجمة العربية واستحداثها للكلمة الأجنبية التي تنتمي في الغالب لإحدى اللغات التالية: الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية والإيطالية. أو قد يدرج اللفظ الأجنبي بذاته في اللغة العربية بحيث يحدث تعريبه بتعميم استعماله. أما الاستعمال المغربي لمفهوم التعريب، فهو يحيل على طموح أكبر في جعل اللغة العربية شاملة لجميع أوجه النشاط الإنساني للمواطنالمغاربي، بما في ذالك التعليم والإدارة وجميع وسائل التواصل داخل الفضاء العمومي، سعيا إلى جعل العربية وحدها دون سواها أداة للتعبير عن الفكر والحس.4

1- ليلى صديق(2011)، ص.135

2- محمد حسن عبد العزيز(1990)، صص.66-65

3- م.ن.، ص.71

4- نازلي معوض أحمد(1986)، صص.43-42.

2.موقف النخبة المغربية من التعريب

رغم اختلاف المنطلقات والتصورات التي تؤطرها، إلا أن تجربة التعريب في الشرق والغرب العربيين م تتم بشكل منفصل تماما. حيث اعتمد المغرب العربي على كثير مما أنتجه المشارقة في هذا المجال، كما ظل المشرق منفتحا على مساهمات المغاربيين التي أغنت بدورها اللغة العربية.

لقد ارتبطت قضية التعريب في شمال إفريقيا بأهداف سياسية تتعلق باسترداد الهوية الوطنية والتأكيد على الشخصية العربية والإسلامية. كما أخذت على عاتقها مهمة إحلال اللغة العربية مكان اللغة الأجنبية وتحديدا الفرنسية. فكيف تبلور هذا الوعي لدى النخبة المغربية، وماهي آليات انتشاره؟

1.2 -تصور التعريب لدى الحركة الوطنية

ردت الحركة الوطنية على محاولة التفرقة بين العرب والأمازيغ برفضها للظهير البربري الذي راهن على النظام العدلي من أجل شق وحدة المغرب الوطنية. كما سعت إلى إنشاء المدارس الحرةسنة 1944، دفاعا عن اللغة العربية وتمسكا برافد من روافد الثقافة المغربية الذي يصلها بالحضارة العربية الإسلامية. شكلت النخبة التي كانت تتلقى تعليمها باللغة العربية داخل المدارس الحرة النواة الأساسية لمقاومة المد الفرنكوفوني الذي أنتجه المستعمِر الفرنسي قبل رحيله. وارتكز المشروع الثقافي والفكري للحركة على ثوابت أهمها: الوعي بالبعد الوطني والقومي العربي الإسلامي للقضية التعليمية، والتأكيد على ثقافة مدرسية تُروج أساسا للدين واللغة العربية بكل مضامينها الحضارية.

انتقد علال الفاسي استعمال النخب الشابة للغة الأجنبية وجعلها لغات التقدم والتفوق ضدا عن العربية. واعتبر ذلك دليلا على ضعف اجتماعي يجب التصدي له مؤكدا أن »الحديث باللغة الأجنبية في غير الضروريات معناه التفكير بهذه اللغة، وهيمنة كل ما توحي به كلماتها ونكاثها على الفكر، ومن تم على العاطفة، وذلك ما يصيب الاتجاه الوطني نفسه في الصميم «5. لم يكن علال الفاسي من أنصار الانغلاق بدعوى الخصوصية ورفض الانفتاح على ثقافة الغير والنهل من علومهم وتعلم لغاتهم، لكنه إلى جانب ذلك يدعو إلى التمسك باللغة الوطنية واعتبرها شرط تحقيق الحرية :»إن الشعور بالحرية لا يمكن أن يتم إذا كنا لا نشعر بالنخوة حينما نتحدث بلغتنا، وحينما نعبر عن أعمق الأفكار وأرقى العواطف به« .[6]

5- علال الفاسي(2011)، ص.351

6- م.ن.، ص.352

طبعا القصد في الحديث عن اللغة الوطنية عند زعيم الحركة الوطنية هو اللغة العربية، لكن الإشكال يبقى مطروحا حول إمكان تعميم هذا الشعور بالانعتاق في علاقة المواطن المغربي باللغة، علما أن المجتمع المغربي هو مجتمع مزيج من العرب والأمازيغ في أغلب مكوناته، مما يفرض علاقة مختلفة لكل مجموعة مع اللغة. يبدو أن شعور علال الفاسي بخطر الاستعمار الذي يتربص بوحدة وهوية المغاربة، جعله يؤمن بضرورة تعميم مبدأ التعريب في المدرسة كمحاولة لتحرير الوطن، أي تحرير مجموع الأفراد الذين يعيشون على نفس الأرض ويجمعهم تاريخ مشترك كمغاربة وليس كجماعات لغوية متمايزة. فما هو تصور علال الفاسي لوضع اللغة العربية في النظام التعليمي؟

من العاميات، اتخذ علال الفاسي موقف الرفض المطلق وربط وجود ما يعرف في التعليم العربي ب»الزنقاوية»، في إشارة إلى العامية، بحدث الاستعمار الذي احتاج لصرف ملايين من الفرانكات لتكوين المراقبين المدنيين والمترجمين لأغراض سياسية لا علاقة لها بالعلم ولا مصلحة المغاربة. وعليه، فاستقلال البلاد ودعم تعليمها يفرض تحويل هذه المبالغ للرفع من شأن اللغة العربية: »فإننا نقترح على السيد وزير التعليم والفنون الجميلة إلغاء ما يتعلق بمناهج العامية وإطاراتها، وتوجيه نفقاتها لتأسيس كلية اللغة العربية، لتكون نواة الجامعة، وأساسا لرفع مستوى الآداب العربية في البلاد«7. نفهم من هذا القول المكانة المتميزة التي خص بها الرجل اللغة العربية في المنظومةالتعليمية، وبالتالي تحمسه لمشروع التعريب التام لجميع أسلاك التعليم كإجراء يحفظ للمغرب لحمته الداخلية ويعزز استقلاله عن المستعمِر الأجنبي.

لكن افتقار الدولة الحديثة العهد بالاستقلال إلى الموارد المالية لتعميم تعليماللغة العربية، جعل المشروع يتعثر خصوصا بعدما أكد وزير التعليم (سنة 1956) عجزه على تنفيذ البرنامج الذي وضعه للتعليم الابتدائي. ينضاف إلى ذلك قلة الأساتذة المعربين ونقص المدارس والكتب الدراسية. حالت هذه المشاكل وغيرها دون إتمام التعريب على الوجه الأكمل، فسقطت العملية في الارتجال وغاب التخطيط المحكم والعمل المنظم، مما انعكس سلبا على وضعية التعليم برمتها.

يعترف علال الفاسي بعدم الاستعداد بما يكفي لإنجاح مشروع تعريب التعليم. فقد اتسمت الإجراءات أحيانا بالتسرع وكثيرا بتقديم حلول ظرفية لمشكلات لم يتم التنبؤ بها والاستعداد لمواجهتها بشكل مسبق. يبدو أن القرارات المرتجلة التي واكبت التعريب، جعلت خصومه يتحينون الفرصة لضرب اللغة العربية وقدرتها التنافسية في السوق اللسنية، وبالتالي التبرير لضرورة الإبقاء على الفرنسية للقيام بما لا تقوى عليه العربية في مجالات المعرفة والعلوم، حسب زعمهم. بقي التعريب

7-م.ن.، ص.242.

غاية لابد من بلوغها ولكن ستختلف الطريقة، حيث ستنتقل الدولة من التعريب بالتدرج عن طريق السنوات إلى التعريب عن طريق المواد كلما توفرت الشروط من كتب وأطر تربوية، مع الاحتفاظ بالفرنسية وجعلها لغة العلوم في جميع الأسلاك وخصوصا في الجامعية.

بحكم الواقع، رضخ أنصار التعريب إلى قرار الإبقاء بشكل مؤقت على اللغة الفرنسية حتى تصبح المنظومة التعليمية جاهزة للتعريب الكامل. ما لم يكن مقبولا هو الاحتفاظ بالفرنسية جنبا إلى جنب مع اللغة العربية، معللين ذلك بعدم قدرة أية لغة أخرى على الحلول محل اللغة القومية ونفي إمكان إتقان لغتين والإبداع من خلالهما على قدم المساواة. فملكة تعلم اللغات، في تصورعلال الفاسي مثلا، هي ملكة تقتصر على فئة عبقرية محدودة لا يستطيع كل من ولج المدرسة أن يجاريها. كما يضيف مشكل آخر وهو صعوبة اللغة الفرنسية التي لا يَمهر في الإبداع بها إلا أهلها8. لهذه الأسباب وغيرها يصر أنصار التعريب على مطلبهم بضرورة تسريع تعريب العلوم واعتماد العربية الفصحى كلغة للتدريس تكون حاضرة في المدرسة والثانوية كما في الجامعة وفي جميع التخصصات.

إن الانتكاسة التي عرفتها سياسة التعريب، تعود إلى تعميم المدارس العربية/الفرنسية بدلا من السير وفق نهج المدارس العصرية المعربة التي اعتمدها محمد الخامس سابقا. فكان من نتائج هذه السياسة عجز المنظومة التعليمية عن تزويد المغرب بالأطر المعربة الكافية لتعريبه. بل أكثر من ذلك تعمق استعمال اللغات الأجنبية بالشكل الذي هيمن على اللغة العربية وأضعف من تواجدها. لم يبقى لدعاة التعريب إلا المراهنة على الجيل الجديد؛ أطفال ما بعد الاستعمار في خطوة يطمحون أن تقود المجتمع إلى التعريب الفعلي.

كان خطاب التعريب على لسان زعماء الحركة الوطنية خطابا همه الأساسي هو الحفاظ على لحمة البلاد وحماية مقوماتها. لكن هذا الحماس انتُقد بشدة من قبل مجموعة من الباحثين. يرى مصطفى محسن، أستاذ باحث في سوسيولوجيا التربية، أن المرجعية التياعتمدها فكر الحركة الوطنية، كانت محكومة بأفكار سلفية محافظة ظلت تحتجز القضية التعليمية والثقافة التي تستهلكها المدرسة داخل نموذج قيمي وأخلاقي عام اتسم بالمحافظة ومقاومة التجديد، بحيث استعصى معه بلورة تصور تحديثي قادر على تجاوز المشروع التعليمي الذي أحدثه الاستعمار. شكلت هذا الانتقاد مدخلا رئيسيا لبلورة فهم جديد لإشكالية التعريب في المغرب، فماهي إذن معالم الخطاب التحديثي للنخبة الوطنية ؟

8- علال الفاسي(2005)، ص.110

2.2 -تصور التعريب في الخطاب التحديثي

إن إنجاح مشروع التعريب الذي دعت له الحركة الوطنية وتبنّته الإرادة السياسية، بقي مرهونا بقدرته على تقديم البدائل اللغوية المناسبة التي تجعل الدولة قادرة على مواكبة الركب الحضاري الكوني في شموليته. لتستطيع اللغة العربية المواكبة، يُطرح عليها بإلحاح شديد سؤال المضمون: أي محتوى ثقافي ستُروج له هذه اللغة؟

إن امتلاك النخبة الحاكمة والفئات الموالية لها الرأسمال الثقافي واللغوي السائد، جعلها تتحول من حامية لمكتسبات النضال ضد الاستعمار إلى طبقة محافظة ترفض الانفتاح على كل مشروع إصلاحي تحديثي، مخافة أن يسلبها الشرعية الضامنة لاستمرارها في ممارسة السلطة. في هذا الصدد يقول العروي: »الثقافة العربية[...]تعكس صورة مجتمع معين بخصوصياته العرقية والمعاشية والاجتماعية والعقائدية. وتعمل من خلال التربية النظامية على أن يرثه جيل عن جيل. [...] الثقافة العربية هي بالفعل ثقافة الخاصة بل خاصة الخاصة، الحكام والكتّاب والفقهاء «9. إلا أن الأصوات تعالت مطالبة باختراق نخبوية الثقافية واحتكار اللغة بتبني مبدأي تعميم التعليم والتعريب، على أمل أن تُحدِث الأجيال القادمة القطيعة مع الفكر التقليدي وتتحول العربية إلى آلية لترويج قيم الأنوار وثقافة التحديث.

عندما عرَّف محمد عابد الجابري التعريب، نجده يتحدث عن طموح المغرب في جعل اللغة العربية هي اللغة التي تدرس بها جميع المواد في ميدان التعليم وخصوصا اللغة التي يستعملها الإنسان المغربي في جميع تعاملاته اليومية10. لا اعتراض للجابري على التحديث والمعاصرة، لكنه يرفض رفضا تاما تجريد المغاربة من لغتهم باسم الحداثة. فقرار التعريب، قرار لا رجعة فيه والعربية مؤهلة كغيرها من اللغات لتكون لغة علم ومعرفة، شريطة العمل على تطويعها والعمل على إغنائها. يقول في هذا الصدد:»المسألة ليست مسألة صلاحية هذه اللغة أو تلك لتدريس العلوم، فجميع اللغات في هذا المجال سواء، العربية والصينية والعبرية والروسية والفرنسية والإنجليزية، والتفاوت تفاوت في مدى تطويع أهل لغة ما للغتهم: والتطويع لا يمكن أن يكون بممارسة اللغة في لغة أخرى بل في اللغة المراد تطويعها».11

يرتكز مطلب التحديث في شقه اللغوي، حسب الجابري، على دعم اللغة العربية إلى جانب اللغات الأجنبية، مع إعادة التفكير في اختيارات المغرب في المجال، وتحديدا في وضع اللغة الانجليزية التي

9- عبد الله العروي (2010) ، ص.51.

10- محمد عابد الجابري(2007)

11-م.ن.

حان نقلها إلى مرتبة لغة العلم الأولى بعدما فرضت نفسها حتى على اللغة الفرنسية ذاتها. لا يجد الجابري للمغرب عدوا ثانيا بعد الاستعمار إلا التخلف. وتحقيق شرط التنميةارتبط لديه بالالتزام برباعية: التعميم، التوحيد، التعريب والمجانية. وهي الثوابت التي قامت عليها المنظومة التعليمية بعد الاستقلال:» التنمية تتطلب تعميم التعليم. وتعميم التعليم في مجتمع يعاني من الفقر والبطالة يتطلب المجانية والتعريب: المجانية وحدها تمنح الحد الأدنى من تكافؤ الفرص، والتعريب وحده يمكن من توصيل المعرفة إلى الشعب، إذ ليس من الممكن إخراج شعب من لغته وإدخاله في لغة أخرى»12. إذن ومن منظور تحديثي، نلمس تأكيد كل من المفكرين عبد الله العروي ومحمد عابد الجابري على ضرورة الاشتغال على اللغة قصد تطويعها، بحيث يصبح التعريب أداة من أدوات تجديد مضمونها وجعلها مواكبة لتطورات عصرها.

3 - تجربة تعريب التعليم

لطالما كان النظام التعليمي هو المعول عليه لإخراج التوجهات الكبرى للدولة إلى حيز التطبيق. إذا كان التعريب ثابتا من الثوابت التي قام عليها مغرب ما بعد الاستقلال، فكيف تم تعريب التعليم؟ ما الذي تحقق؟ و ماذا بعد؟

3.1 -خطة التعريب

بعد الاستقلال، شغل محمد الفاسي، عن حزب الاستقلال، منصب أول وزير للتربية الوطنية. كان قد تقدم ببرنامج طموح يهدف لتعريب فوري للمرحلة الابتدائية مع جعل عدد ساعات تدريس اللغة العربية في باقي المستويات مساوٍ لتلك المخصصةلتعليم اللغة الفرنسية، استعدادا لجعل درس اللغة العربية يرتقي إلى ضعف عدد ساعات تعلم الفرنسية في أفق (1958).13 فشل طموح الوزير بعدما اصطدم بواقع محدودية موارد الدولة الفتية، كما كان يعوز خطته الطموحة، الأطر المعربة المؤهلة للتدريس.

كانت الانطلاقة الفعلية لعملية تعريب التعليم في المغرب سنة)1967(بإقرار تدريس جميع المواد بالعربية في المرحلة الابتدائية مع الإبقاء على الفرنسية كلغة ثانية. لكنتَعذَّر تعريب المرحلة الثانوية في تلك الفترة، مما سمح للفرنسية بالعودة إلى السنوات الأخيرة من السلك الابتدائي، تيسيرا لعملية انتقال التلاميذ المعربين إلى المرحلة اللاحقة.14لقد كان من نتائج هذا الارتباك الذي عرفته

12- م.ن.

13-سيرل (1985) Sirles،ص.222

14- نازلي معوض أحمد (1986)، ص. 113

العملية، أن اضطر تلاميذ المرحلة إلى دراسة مواد كالعلوم والرياضيات باللغة الفرنسية وهم لم يتعرفوا بعد على هذه اللغة؛ لأن تدريس الفرنسية كلغة لم يكن متاحا إلا في السنة الثالثة من التعليم الابتدائي.

بعد مرور خمس سنوات على التجربة الأولى، سيشمل التعريب بعض المواد الأدبية المدرسة في الثانوية مثل التاريخ والجغرافية والفلسفة، بفضل الدفعة الأولى من خريجي كليات الآداب والمدرسة العليا للأساتذة بالرباط الذين أشرفوا على إنجاح المرحلة. لكن الملاحَظ أن التعليم لم يُعرَّب بقدر ما تم ترسيم الثنائية عربية/فرنسية ، وبالتالي إدخال الفرنسية للمدرسة المغربية بمباركة أصحاب القرار السياسي، وذلك على حساب اللغة العربية أو التعريب، وهو تأمر الذي تؤكده الأرقام التالية: حيث نجد أن السلك الابتدائي يحتضن اللغة العربية تدريسا واستعمالا بنسبة (73.6%) بينما لم يتجاوز حضور الفرنسية فيه نسبة (26.4%). سيختلف الأمر في السلك الموالي أي السلك الأول من التعليم الثانوي، حيث انخفضت نسبة تواجد العربية إلى (37.5%) لترتفع نسبة حضور الفرنسية ب (62.5%). ونلمس نفس المنحى التطوري في السلك الثانوي الثاني الذي سينخفض فيه تواجد العربية إلى (14.3%) نظرا لتأخر تعريب المواد العلمية.15

قد يُفهم من الإجراء أنه ظرفي مؤقت فرضه إكراه نقص الأطر المعربة وعدم الاستعداد بشكل كلي لعملية التعريب، لكن استمرار ثنائية اللغة على مستوى مراكز تكوين الأطر المغربية من مدرسين ومفتشين يجعل السؤال مطروحا حول طبيعة الأهداف البعيدة المدى التي تتوخى الدولة بلوغها في هذا المجال. طبعا في الجامعة وخلال هذه الفترة ظل التعليم مفرنسا بالكامل في كل التخصصات العلمية، أما المجالات الحيوية المعول عليها لتعريب التعليم والإدارة كالمدرسة الإدارية وكليات الآداب فقد ظلت تراوح بين استعمال مزدوج للعربية والفرنسية.16

في الموسم الدراسي)1978 \1979(، تم فتح المدارس العليا لتكوين أساتذة العلوم والرياضيات لمواجهة متطلبات المرحلة الموالية وتحويل المواد العلمية في الثانوية إلى اللغة العربية، الذي سيتحقق فعليا سنة(1982). لم يتمكن التعريب من العبور إلى المستويات العليا من التدريس دون تعثرات، ناتجة أساسا عن الانقطاعات التي عرفتها عملية تعريب المواد العملية. كما لم تستثمر الجامعة المغربية المجهود الذي بُدل في تدريس العلوم باللغة العربية على مستوى الأسلاك السابقة. بل إن

15- محمد عابد الجابري(1985)، ص.83

16- م.ن.، ص.78

غياب تلك المواكبة، أحدث اختلالات جوهرية في المنظومة التعليمية ككل. ويتحدث بعض الباحثين عن الفوضى التي تعيشها الجامعة جراء تحول الطلبة الحاصلين على باكالوريا علمية إلى الشعب الأدبية هروبا من حاجز اللغة الفرنسية، لغة تدريس العلوم داخل المدرجات17.

2.3 -التعريب في الميزان

بعدما أكدت العربية على عمق الجذور التي تصلها بثقافة المغاربة، يرى بعض الباحثين أن النضال في المرحلة الموالية يجب أن ينتقل إلى »الدفاع عن العربية الفصحى ضد اللحن في القول، وضد النزعات العامية في الحديث اليومي وفي الإعلام والثقافة، بل وفي الكتابة الأدبية«.18إذا كان الميثاق قد أبدى انفتاحا ومرونة في التعامل مع اللهجات، فالمدافعون عن الفصحى يبدون تحفظهم من اجتياحها لقاعات الدرس، حيث انحصرت اللغة العربية وكثر اللحن فيها، فتحول أبناؤها إلى أعدائها الجدد.

مشكلة أخرى تقطع الطريق على إنجاح عملية التعريب، وتتحدد في ترجمة المصطلحات الأجنبية. لقد صار استعمال اللغة ممزوجا بكثير من المفردات الدخيلة رغم وجود البديل المعرب. نقول مثلا: الكومبيوتر بدلا من الحاسوب، النت بدلا عن شبكة المعلومات وهي الإشكالية التي عبر عنها الباحثعبد القادر الفاسي الفهري بضعف المصطلح المترجَم وعدم توحيده. وتزكي النخبة وضعية التهميش التي تعيشها الترجمة عبر لجوئها إلى المصادر والتعاطي معها بلغتها الأصلية. كما أن السياسة اللغوية لم تكن حاسمة في هذا الشأن وبذلك فهي تتحمل قدرا ليس باليسير من المسؤولية.19مما جعل حركة الترجمة والتعريب تعيش ركودا لا يُسعِف العربية في محاولة لحاقهابالتطور السريع للعلوم والفنون عند الغربيين.

عموما يمكن القول أن سياسة التعريب ظلت تتأرجح بين انجازات كبرى جاءت نتيجة قرارات جريئة وبين انتكاسات وتراجعات خطيرة أرخت بظلالها على المنظومة ككل. فغياب التنسيق والتعاون بين الدول العربية ضيع على العالم العربي فرصة إنجاح خطة التعريب بالشكل المطلوب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ففي القطر العربي الواحد نجد اختلاف مواقف النخب من التعريب. عن وعي أو عن غير واع، ظلت النخبة تعبر عن مواقف متباينة من اللغة العربية، وهذا واضح من خلال التناقض على مستوى الخطاب والممارسة؛ فكثير من المثقفين يدعون للتعريب في حين يختارون لأبنائهم تعليما

17- سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7 (2003)، ص.110

18- حسن حنفي (2011)، ص.50

19- عبد القادر الفاسي الفهري (2010)، ص.81

في المدارس الأجنبية التي تعنى باللغات، ثم إن اختلاف توجهات النخب وتبادل الأدوار السياسية وموازين القوى الاجتماعية يصاحبه موقف معين من اللغة الوطنية، وهو الأمر الذي لم يخدم كثيرا قضية التعريب.

ينضاف لمجموع العوامل السالفة الذكر، عامل آخر حاسم يشكل، في تصورنا الخاص، لب المشكل اللغوي بالمغرب والمتمثل في غياب مشروع واضح المعالم للمجتمع الذي نصبو إليه، والذي ستنصهر داخله كل الاختلافات الثقافية لتنبثق من صلبها قوة الوطن.وهذا في حد ذاته مرتبط في جانب منه بالتشويش الذي مارسه الاستعمار وما يزال على المغرب، كبلد لديه موارده الخاصةالتي يتطلع لتنميتها في اختيار مستقل تماما عن من يحدد له شركاء التنمية. لقد كان من انعكاسات هذه التبعية، عدم استقلالية النخب السياسية المكلفة بقرار التعريب.

في ظل هذا الوضع المأزوم، يتحول التعريب إلى آلية من آليات سلب الامتياز من الشرائح التي استفادت وتستفيد من دراسة اللغات الأجنبية والفرنسية على وجه الخصوص وبالتالي مزاحمتها وتهديد مصالحها، كما يصبح في نظر أنصار القضية الأمازيغية أداة للتهميش والإقصاء. ومنه، فإن تبني سياسة التعريب دون إعداد الأرضية الملائمة لاستقباله على المستوى الوطني ديمقراطيا واجتماعيا واقتصاديا، أضر به وساهم في إضعاف مكانته كثابت من ثوابت المدرسة الوطنية.

كان من النتائج الكارثية التي حصلتها تجربة التعريب المتسمة بالتذبذب وتكرار المحاولات ومعاودة التجارب إلى حد الدوران في حلقات مفرغة، أن تزعزعت ثقة الفاعلين التربويين والمواطنين عموما باللغة العربية وبمدى قدرتها على إدخال المغرب للمنافسة العالمية في مجالات العلم والأدب، فصار التعريب ملازما لنموذج التعليم غير القادر على توفير مكان ملائم للخرجين داخل سوق الشغل، وبالتالي درعا من الدروع الجديدة لإعادة إنتاج وضع اجتماعي غير متكافئ.

لقد أفرز هذا الواقع اللغوي ببلادنا خطابات متعددة، منها من انتصر لأطروحة الإبقاء على اللغة الفرنسية وهو الموقف الذي عبر عنه التقنوقراطيون الذين يتمسكون بفكرة أن الحداثة تجلبها اللغة الفرنسية، بينما بقي موقف النخبة المعرَّبة مدافعا عن خيار التعريب اقتناعا منه بأن العربية هي الحامية للوطنية. بين هذا الموقف وذاك سيبرز موقف ثالث توفيقي يقول بضرورة العمل باللغتين طالما ارتبط ذلك بمصالح الوطن، شرط تحديد مجال اشتغال كل لغة. فتهتم العربية بالشؤون الداخلية وفي مقدمتها التعليم، بينما توظف الفرنسية في التعاملات مع الخارج.

خلاصة

في ختام حديثنا عن التعريب، نخلص إلى أن هجوم الاستعمار على العربية حوَّل معنى التعريب من العمل على جعل اللغة قادرة على مواكبة الحراك المعرفي العالمي إلى مظهر من مظاهرالمقاومة الثقافية ومحاولة إثبات الذات والهوية. مما دفع بالكثير من المتحمسين للتعريب إلى التحصن داخل قلاع الإيديولوجية الإسلامية المحافظة، والتقوقع تحت طاقية لغة الضاد وقدسيتها التي تجعل من العربية لغة جامدة عصية على التطويع والتحديث كباقي لغات العالم.

لا شك أن اللغة العربية تمكنت من استرجاع مكانتها ولو نسبيا داخل السوق اللغوي، بفضل سياسة التعريب التي تبنتها الدولة بعد الاستقلال. فقد فاق مستوى إتقان لغة العربية الفصحى مستوى التمكن من لغة الفرنسيين حسب ما تقره أحدث البحوث السوسيولسانية المنجزة بالمغرب، لكن المراهنة على الكم مع إغفال الجودة في المناهج والبرامج والتخطيط المحكم للعملية في شموليتها وتغييب التنسيق مع الدول العربية المتقدمة في المجال، يفوت على التعريب فرصة الاستفادة الكاملة من غنى اللغة العربية ومن الرابط التاريخي الذي يجمع فئات واسعة من المغاربة بهذا الإرث الثقافي المشترك.

ببليوغرافيا

❖ مراجع باللغة العربية

- العروي، عبد الله (2010)، من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء
- الفاسي الفهري، عبد القادر (2010)، أزمة اللغة العربية في المغرب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط5، بيروت
- الفاسي، علال (2011)، رأي مواطن، مؤسسة علال الفاسي، ط 2، الرباط
- الفاسي، علال (2005)، من أجل تفاعل لغوي، منشورات مؤسسة علال الفاسي، ط1، الرباط
- حنفي، حسن(2011) الفرنكوفونية أم اللحن؟، الفرنكوفونية، تحرير: عبد الإلاهبلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت
- صديق، ليلى (2011) طرائق قدماء اللغويين العرب في التعريب اللفظي، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، 5،مستغانم، ص.135

- عابد الجابري، محمد (2007) أفكار حول إصلاح التعليم بالمغرب الراهن،أنفاس نت، أبريل،http://www.anfasse.org/
- عابد الجابري (1985)،محمد أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء
- عبد العزيز، محمد حسن (1990)، التعريب في القديم و الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة
- نازلي، معوض أحمد (1986)، التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان
- وضع اللغة والأدب العربيين في الجامعة، سلسلة ندوات وناظرات رقم 7، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 2003، ص.110

❖ مراجع باللغة الأجنبية

- Sirles, Craig (1985), AN EVALUATIVE PROCEDURE FOR LANGUAGE PLANNING : THE CASE OF MOROCCO, University Microfilms International, Northwestern University, EVANSTON